تحتلها اسرائيل، من تزايد الدور الفاعل للعامل الفلسطيني الأكثر خطورة في مسيرة الصراع، واعني به دور فلسطينيي الأرض التي أقيمت عليها اسرائيل العام ١٩٤٨. فبعدما ثبت عقم الرهان على ذوبان الغالبية الساحقة من الشعب الفلسطيني، التي اقتلعت وشرّدت من وطنها في ذلك العام، في المجتمعات التي لجأت إليها، ثبت، أيضاً، عقم الرهان على ذوبان القلة التي نجت من عملية الاقتلاع الجماعي وتشبثت بأرضها في الجليل والمثلث خاصة، وفي النقب وحيفا وعكا والرملة وسواها أيضاً، وهي قلة تتكاثر وتتجذر وتشمخ ببطء، ولكن بثبات أيضاً، في وجه المشروع الصهيوني. لقد عبّر عميد كلية العلوم الاجتماعية في جامعة حيفا، البروفيسور ارنون سوفر، مثلاً، عن هذا الرعب بقوله، في محاضرة له بتاريخ ١٩٨٨/٧/١٢: «ان هدف تهويد الجليل بقي مهمة لم تتحقق حتى الآن؛ وإن المستقبل لا يبدو مضموناً؛ والسلطات الاسرائيلية لم تعط الانتباه الخاص للسكان العرب [الفلسطينيين] الذين يشكلون، الآن، ٧٤ بالمئة من مجموع السكان [في الجليل] والذين عزّزوا وجودهم...»[٩]؛ بينما ذهب الكاتب أليشع أفرات الى أبعد من ذلك، حين كتب محذراً: «ليس من المستبعد، في ضوء الانتفاضة... أن يسعى عرب الداخل الى المطالبة بحكم ذاتي في المناطق التي يتواجدون فيها»[١٠]. ان هذا القلق، الذي وصل حدّ الرعب من هذه الفئة بالذات من الفلسطينيين، والتي تشكّل سلاحاً ليس له سلاح مضاد في سياق الصراع، يشكل سبباً إضافياً لدفع القيادة الاسرائيلية إلى نقل مركز الاهتمام والأحداث بعيداً، عبر عمل سريع يجمّد الأخطار المسبّبة لهذا الرعب لفترة طويلة مقبلة، ويعيد الى نفوس فلسطينيي الجليل والمثلث والنقب حالة الاحباط التي سيطرت عليهم زمناً، قبل أن يتعاظم الفعل السياسي لديهم، فيشكل حركة قد تأخذ شكل انتفاضتهم الخاصة المتكاملة مع انتفاضة إخوانهم في الضفة والقطاع.

ان هذه الحقائق والمؤشرات، وغيرها كثير، تبيح لنا ان نضع في الاعتبار احتمالاً، يزداد رجوحاً، بأن تسعى اسرائيل إلى شن حرب تستبق بما تخطط لخلقه عبرها من وقائع جديدة على أرض المنطقة الافرازات المنتظرة للتغيرات الجذرية الراهنة في الخارطة السياسية لعالمنا، وتبعد مركز الاهتمام من العامل الفلسطيني الضاغط عليها، وتوجّه ضغطه، في الوقت عينه، نحو سواها، بما يعيد التحكم الاسرائيلي قوياً بمسار المنطقة، ويجهض جنين التغيير الذي تتفاعل عوامله بنشاط متزايد في أرجاء المنطقة، مبّشراً بانطلاقة حضارية تعقب، وتواكب، انقلاباً جذرياً في الحياة السياسية، والمجتمعية، والاقتصادية، على قاعدة الأصالة الحضارية لمنطقتنا، بعد نفض ما لحق بهذه الأصالة من تشويه، واستلاب فكري؛ ناهيك عن أن مثل هذه الحرب تساعد على إعادة توحيد المجتمع الاسرائيلي وتماسكه، وتجمد تناقضاته على قاعدة استثارة إحساسه بالخطر الخارجي.

وبتفصيل أوضح، إننا لا نستبعد أن تشن إسرائيل حرباً قريبة، تكون تطويراً نوعياً لحروبها السابقة، ويكون تركيز الضربة المباشرة فيها مزدوجاً، بحيث يوجه اندفاع القوة العسكرية، المعتمدة أصلاً على المدرعات المحميّة جوّاً، نحو الأردن في اجتياح صاعق، تصبح، بعده، مسألة إقامة نظام جديد وإدارة بديلة ملهاة تستولي على الجهد والاهتمام، محلياً، واقليمياً، مع دفع أكبر عدد ممكن من فلسطينيي الضفة الفلسطينية إلى شرق نهر الأردن. وطبيعي أن يكون العراق هدفاً للضربة المباشرة المزدوجة في الهجوم الاسرائيلي، والتي نقدّر أن الأسلحة غير التقليدية سوف تستخدم فيها ضده، في محاولة لتدمير أهداف منتقاة من منشآته الاستراتيجية المتطورة، مع محاولة شل حركته العسكرية المتوقعة، قبل أن ينجح في نجدة الأردن. ولن توفّر الضربة سوريا؛ بل سيكون ضرب قدراتها العسكرية في مقدّم الأهداف الاسرائيلية باستخدام القوة البرية، والجوية، والبحرية، التقليدية، وكذلك